بلاد الافغان

وملكها الشاب

بقلم الاب لامنس اليسوعي

قد يكون اطلع قرائنا الكرام ، في الجرائد اليوميّة ، على تلك الحوادث التي اثارها في مصر ، سرور امان‌الله خان ، ملك بلاد الافغان . فرأوا كيف ذُعر علماء القاهرة ، اذ شاهدوا اميرًا كانوا يعتبرونه احد المرشحين للخلافة الميتة ، يدخل الجامع الازهر وعلى رأسه القبعة ؛ ويظهر بكل بساطة امام الجمهور ، كما يفعل العامّة من المسيحيين ، جاعلًا من عن يمينه امرأته الملكة اللطيفة . وان هذه الحوادث البسيطة تكفي وحدها للفت الانتباه ، اذ انها تنمّ عن شخصية خارقة العادة ، وعقليّة مستقلّة تسمو على احكام العامّة وآرائهم التقليدية . وهي ليست باولى المدهشات ، فان قرار السفر الى اوربة نفسه ظهر حادثًا غريبًا في بلاد الافغان ، وزاده غرابة الرغبة في استصحاب الملكة ثريّا ، التي قضت قسطًا من طفوليتها في دمشق

واننا ندع الآن امان الله خان وامرأته ينهبان زياراتها لاشهر العواصم الاوربية ، ويجتازان الى الولايات المتحدة ؛ ونجتهد في ان نتعرّف الى بلاد هذا الملك الشاب ، الى بلاد الافغان التي لم تخرج بعد من محيط الاسرار والغوامض . . . شاهدت هذه البلاد ، فيما خلا ، مرور فاتحي الزمن القديم كدارا ، والاسكندر الكبير ، وانطيوخوس . ومما يذكره التقليد ان القديس توما الرسول مرّ بها ايضًا . ولكن كل ذلك لا يمنع كونها ظلّت ، مع بلاد التبت ، من اغرب اقاليم آسية المتوسّطة ، واعرقها في الغموض . وحتى السنين المتأخرة ، لم تكن حكومتها تسمح للسيّاح الاجانب بالدخول اليها

* * *

البلاد : تاريخها وسكانها

تتاخم افغانستان شمالاً مقاطعة بُخارى ؛ وغرباً بلاد العجم ؛ وشرقاً وجنوباً الهند الانكليزية . وتبلغ مساحتها ٥٥٨,٠٠٠ كيلومتر فتزيد على مساحة فرنسة . وهذه البلاد جبليّة في اكثرها ، يبلغ ارتفاع اعلى قمة فيها ، وهي قمة « كوهي بابا » ٥,١٥٠ متراً . فيصعب الدخول اليها لان مجازاتها ضيقة يكفي لحمايتها قليل من الرجال . وهو امر يشرح تلك العزلة التي انفردت بها طويلاً . اما السكان فيبلغ عددهم نحو السبعة الملايين . وهم متفرّقون في قرى ومدن اهمها كابُل ، وفيها ١٨٠,٠٠٠ نسمة ؛ وقندهار ، وفيها ٤٠,٠٠٠ نسمة ؛ وهرات ، وفيها ٢٠,٠٠٠ منهم ١,٥٠٠ يهودي . ومدينة كابل عاصمة المملكة يحيط بها سهل فسيح مزدرع ، ويرويها احد سواعد نهر الهندوس . على ان الملك امان الله خان شاء ان يبني عاصمة جديدة ؛ فبدأ على مسافة عشرة كيلومترات من كابل ، بانشاء مدينة عصرية دعاها « دار الامان »

تقلبت على افغانستان حكومات عديدة . فبعد ان ملكتها دولة تمتّ بعرق الى اليونانيين ، مدة المائتي سنة التوالية منذ الفتح الاسكندري ، عادت فوقعت تحت النفوذ الهندي ، فانتشرت فيها اذ ذاك العقائد البوذيّة . ولم تتّسع الفتوحات العربية ، حتى دخلتها الجيوش الاسلامية مرّات ، في القرنين الاولين للهجرة ، ونهبتها . ولكنها لم تقدر على الثبات فيها الى اوائل القرن التاسع للمسيح ، اذ ظهر السلطان محمد الاول الغزنوي (٨١٥ — ٨٤٠م) فأقرّ فيها الدين الاسلامي . ثم اكتسحتها الفتوحات التترية ، فدخلها جنكيز خان ، فتيمورلنك ، فالملك الاكبر ، فلوك العجم المختلفون . ولم تنل استقلالها التام وتنفصل عن الهند الاسلاميّة الّا في القرن الثامن عشر

وسببُ هذه البلايا في تاريخ افغانستان ، عائد الى مركزها الجغرافي : فانها ، على صعوبة مجازاتها ، كانت ولا تزال الممرّ الوحيد لمن يريد الوصول من غرب آسية او شمالها الى بلاد الهند الخصبة . ولهذا فان اسياد الهند لم يكونوا ليُعرضوا عن الاهتمام بمصير افغانستان السياسي ، ولم يكونوا ليُحجموا امام شيء

في سبيل تعزيز نفوذهم في تلك البلاد . فرأينا انكلترة وروسية لا تنفكان عن تجاذب هذا النفوذ ، منذ ابتداء القرن التاسع عشر . وقد استعاد السوفيتيون مؤخراً تقاليد القياصرة في هذا الشأن ، فاخذوا بالاجتهاد في الوصول الى الهند ، من خلال افغانستان ، وباثارة سكانها على انكلترة . اما حكومة الهند فظلت حتى سنة ١٩١٩ تدفع الى امير افغانستان ، جُعالة سنوية قدرها ١,٨٥٠,٠٠٠ روبية . تلك سلسلة ذهبية لم تكن لتغطي تماماً السيطرة الانكليزية

اما الاهلون فاكثرهم من اصل ايراني . وقد احصي نحو نصف المليون من العنصر الآري ، واكثر من ٣٠٠,٠٠٠ من القبائل التركية والقيزلباشية وغيرها ، ونحو الثلاثة آلاف من اليهود . وعدا هؤلاء ، فان جميع السكان يدينون بالاسلام ديانةً شديدة التعلق بالظواهر ، فلا يفرقهم الّا الوهابيون في تأويلهم الحرفي الدقيق لنصّ الشريعة - واكثرهم من السنيين التابعين المذهب الحنفي . على ان بينهم نحو المليون والنصف من الشيعيين الاثناعشريين ، ونحو الثلاثمائة الف من الاسماعيليين . واما اللغة الافغانيّة فهي من فصيلة اللغات الايرانية وتكتب بالابجدية العربيّة – الفارسيّة يُضاف اليها خمس اشارات خاصة . وقد اعتُبرت اللغة الفارسية لغة رسميّة في الحكومة والمدارس

* * *

الحكومة والمؤسسات

قُتل الامير حبيب الله ، والد الملك الحالي ، اثناء يوم صيد في ٢٠ شباط ١٩١٩ . فطمحت ابصار ثالث اولاده ، امان الله خان ، المولود سنة ١٨٩٢ ، الى الحكم ، وساعده الجيش والحزب الوطني ، فنجح وخلف اباه في السلطة على الرغم من معارضة اخويه الاكبرين . ولم يثبت به العرش حتى شهر الحرب على انكلترة ، فاسرعت هذه الدولة واعترفت باستقلال افغانستان التام في ٨ آب ١٩١٩ ، ولكنها منعت عن الامير تلك الجعالة السنوية التي كانت تدفعها لسلفه ، وقيمتها ١٢٠,٠٠٠ ليرة انكليزية ذهباً . وكان على الامير ان يقاوم

ايضاً ثورة داخليّة احدثهـا حزب العلماء الرجعيين ، الـذي لم يرضَ عن سلوك المولى . فقمعها بشدّة اوقعت الرعب في قلوب المناوئين ، واظهرت للبلاد جمعاء ، ان لديها رجلاً حازماً مستعدّاً للسير الى الامام رغم حداثة سنه ، ولم يكن بلغ الثلاثين بعد

وفي سنة ١٩٢٦ ، رأى امـان الله خان ان لقب « الامير » التقليـدي لا يوافق مقامه الجديد ، فاستبدل به لقب « پادشاه » اي ملك . وهذا ما حدث ، في مثل هذه الظروف ، لابن سعود ، امير الوهابيّين ؛ ولفؤاد الاول ، ملـك مصر . ثم عقد الملك الجديد معاهدات مع روسيّة السوفيتيّة ، وتركيّة الكماليّة ، وبلاد العجم وغيرها ؛ وارسل لدى الدول التناصل والمعتمدين السياسيّين . وفي شهر حزيران سنة ١٩٢٦ حضر ممثلـه المؤتمر الاسلامي الـذي نادى ابن سعود بعقده في مكة

يعرف هذا الملك الشاب اللغة الافغانيّة والفـارسيّة ، ويلمّ بعض الالمـام بالعربيّة والفرنساويّة ، وهو يحبّ النجاح والتقدّم بالتجـديد الحسن . على ان عمله الاصلاحي عارضته عقبات كؤود في بلاد متأخرة عمّا سواهـا بنحو قرن ، بسبب اعتزالها المقصود ، وما يثور فيهـا من الحروب الاهليّة . فزادت تلـك الصعوبات في همته ، واخذ يقاومها بمواظبة وحزم ، حتى انتصر عليهـا . وبدأ اعماله باصلاح قانون الزواج فقرّر ، سنة ١٩٢٤ ، ضرورة قبول الفتاة بعريسها قبولاً واضحاً تصرّح بـه قبل عقد الزواج . والغى الحق القديم ، الذي كان يستفيد منه رؤساء الاسر ، فيزوّجون بناتهم قبـل سنّ البلوغ احيـاناً ، ولا يكترثون لرأيهنّ وارادتهنّ . ومن المفيد الاشارة الى ان الملـك يعطي مثالاً صالحاً باقترانه بزوجة واحدة . فلا عجب اذن ، وقد عرفنا اعتباره لهذه المؤسّسة المهمّة ، ان يراه يبدأ اصلاحاته بها ، ويدخل في التفاصيل فيحدّد للمهر قيمةً لا يمكن لاحد ان يتجاوزها ، وهو يجعلها ٥٠٠ روبية لاعضاء الاسرة المالكة ، و٢٠٠ للاشراف ، و٣٠ لباقي الرعيّة . ويلغي ذلك الاسراف الجنوني الذي كان يقوم به الافراد في معرض اعراسهم ، فيضحّون بثروتهم في شراء الهـدايا الكثيرة من الحلويات ؛ فيقرّر ان لا يعلى قدر لنفقات العرس ثماني ليرات . وقد

لجأ الى القوة في تعزيز هذه القوانين الاصلاحية ، والغاء تلك العادات السيئة ، فنجح وتجاوزها الى اصلاحات اوفر اهمية .

وكان له ، من قرار السفر الى اوربة ، سبب جديد لتهييج الخواطر التي لم تكن مستعدة لقبول هذا العمل الخارق ؛ ولا سيما الرغبة التي ابداها الملك في استصحاب الملكة . فكثرت المناظرات في هذا الشأن ، وأجبر امان الله على دعوة أشراف القوم الى اجتماع خاص شرح لهم ، في اثنائه ، غايته من ذلك ؛ وصرّح بان الوقت قد جان لدخول البلاد في طريق التقدم ؛ وان مراده الذهاب الى اوربة ، ليقف بنفسه على نتائج المدنية فيها قبل ان يدخلها الى بلاده ؛ وان غاية الرحلة الدرس والاختبار ، لا اللذة والسرور . ونلاحظ هنا ان الملك لم يكن رأى بعد سكة حديدية ، لانه لم يكن تجاوز حدود مملكته

يعاون الملك في إدارة شؤون بلاده الداخلية عشرة وزراء ، ومجلس شورى مؤلف من اعضاء معيّنين واعضاء منتخبين ، واحداً عن كل مقاطعة . ولا مجلس نوّاب هناك بل لجنة استشارية تدعى « دربار » تجتمع كل سنة ، بدعوة من الملك ، وتؤلف من كبار الموظفين الملكيين والعسكريين ، واشراف البلاد ، وكبار العلماء او الملا (رؤساء الدين) . وفي المقاطعات ايضاً لجان تدعى « مجلس مشورة » تعاون الحكام في الادارة .

وهناك القضاة يعيّنهم الملك ؛ وهم من المذهب الحنفي يخضعون في سلكهم « لقاضي القضاة » . وقد تكون بلاد الافغان الوحيدة بين المناطق الإسلامية ، اذا استثنينا جزيرة العرب ، في تطبيق عدليتها على الشريعة الاسلامية تطبيقاً دقيقاً حرفياً . فتقرّر العقوبات حسب الحق القرآني ، او « حدود الله » . وهكذا فانهم لا يزالون يعاقبون الزاني او السكران بالرجم او الجلد ، والمرتد بالقتل ، والسارق بقطع اليد .

اما فيما يختص بالمعارف ، فان في افغانستان اربع مدارس للتعليم العالي وهي : مدرسة القضاة ، ومدرسة المعلمين العالية ، ومدرسة الهندسة ، ومؤسسة خاصة تدعى « مدرسة اللغات » يدرّس فيها من يستعدون للدخول في سلك

رجال السياسة والقناصل . وعدا هذه ، فان في البلاد عدة مدارس رشدية وابتدائية . وقد ارسلت الحكومة بعثات من الطلّاب الى باريس وبرلين . وفي ٣١ تشرين الاول ١٩٢١ ، وصل الى باريس ، الامير هداية الله ، ابن الملك ، ليتابع دروسه في احدى كليّاتها ؛ ومعه اميران صغيران من انسبائه ، ونحو العشرين ولدًا من اشهر أُسر البلاد. وفي الافغان صحافة لا تزال في طفوليتها . فان الجرائد قليلة ولاسيما اليومية ، ونحن نذكر من هذه : جريدة « افغان » في كابُل ، وجريدة « استقلال افغانستان » في قندهار . على ان الحكومة مهتمة كل الاهتمام في تعزيز الصحافة ، وهي تساعد جميع الجرائد والنشرات مساعدة مادّيّة ، وتجبر كل موظّف ، ملكيًا كان او عسكريًا ، يقبض اكثر من ٥٠٠ روبية في الشهر ، ان يشترك بجريدتين على الاقلّ.

وافراد الافغان شجعان وهم في الحرب ، جنود اقوياء. وقد اصلح جيشهم على عهد البعثة التركية الالمانية التي كان يرئسها جمال باشا ، السيء الذكر في سوريا . ويبلغ عدد الجيش اليوم ٨٠,٠٠٠ من المشاة ، و ١٨,٠٠٠ من الخيالة مع ٤٠٠ مدفع

وقد بلغ الاصلاح الحالة الاقتصادية ايضاً، فاخذت التجارة والزراعة بالازدهار وهي لا تطلب الّا السكينة والامان . اما نوع النقد المتداول فهو الروبية الذهبية والفضية مع نقد من النحاس . ووحدته الروبية ، وقيمتها ٨ بنسات انكليزية.

* * *

هذه هي البلاد التي يسير بها اليوم امان الله خان . وسيطلعنا المستقبل الى اي حدّ يصل هذا الامير الحازم بالشعب الذي ناله الاستقلال السياسي.

ويمكننا طرح السؤال نفسه فيما يختص بمصطفى كمال ، رجل النقرة ؛ وبرضا خان شاه العجم ، فان كلهم يرغبون في البناء بعد الهدم ؛ وكلهم يشتركون بقوّة الارادة ، ووفرة الثقة بهدمهم. وسيرينا الزمن هل تكفي هذه المؤهّلات !